فاتحة القَول

يُعد الوحي المنزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام، نصاً عالمياً وإنسانياً معاً[1]. وبالتبع، فهو نص مُتعالي ومُفارق أبداً؛ ولخُصُوصيته تلك، كان على النقيض من مختلف النصوص الغَيرية؛ سواء كانت مؤسسة أو ثانية، أو كانت ربانية أو إنسانية، مادامت أنها قومية تاريخية محايثة بالضرورة. وكونه كذلك حقاً وحقيقةً، تعين أن يقرأ من خلال أجروميته-معهوده النصي الخاص، وأن تُرى مَصَاديق عالميته وإنسانيته، أو قل، راهنيته الدائمة، في مطلق أزمنة التأويل والتلقي الإنساني وليس العربي فحسب، أما كيف نجعل من دلالاته وأحكامه عالمية وإنسانية نصاً ودلالة معاً؛ فذلك مرده إلى إمكانات الاجتهاد الإنساني، وخصوصاً "المؤسسي" منه؛ سواء على مستوى "الاستنباط" أو "التنزيل"[2].

---

(١) تأمل النصوص الآتية: يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ . [الأعراف. ١٥٨]. وقوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.[الأنبياء. ١٠٦]. وقوله أيضاً: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾.[سبأ. ٢٨]. فضلاً عن محددات منهجية أخرى، تعكس خصوصيته، أو قل، فرادته، التي له بالاعتبار الأول المنزل به، لا بالاعتبار الإنساني المؤول اللاحق، ومن ذلك: "**التعالي المطلق عن ما هو تاريخي**"-تجد ذلك في مختلف الآيات التي تفتتح بصيغ التجريد -، "المعيارية العليا"-يقول تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾. [النساء.٥٨]-، "تنزهه عن مطلق أضرب الاختلاف والتناقض الداخلي(في ما بين نصوصه)، والخارجي(بينه وبين الحقائق العلمية الثابتة، خصوصاً ما تعلق بما هو خلقي؛ إنساني أو كوني)"-يقول سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾. [النساء.٨٢]-، ونحو ذلك.

(٢) إن ما يشهده فضاء الفكر الإسلامي المعاصر من فتنة تأصيلية مفهومية دلالية، خصوصاً على مستوى التشريع والفتوى المتعلقين بالشأن العام، أو ما تعلق بالقضايا والإشكالات الكبرى، التي تهم الوجود الجمعي الإسلامي، راجع حقيقة إلى طغيان "الاجتهاد الفردي" المؤسس عن أراء غير مخمرة، وغياب "الاجتهاد المؤسسي" المؤسس عن التكامل، فضلاً عن غياب التأهيل أو التخصص في المجال، إذ لا يحسن بالمرء أن يتكلم في أمر إلا إذا أحاط به خبراً. تأمل النصوص الآتية: يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ

اجتهد الفكر الإسلامي منذ بدايات التأسيس الأولى، في وضع ما من شأنه الكشف عن الأركاز الدلالية الموضوعية لنص الوحي المنزل، وجعلها مواكبة لمختلف مستجدات مراحل تاريخه في شتى المجالات والحقول. فكان من صنعه أن سطر جملة قواعد وضوابط عامة، يتوسل بها لتحقيق المبتغى، وقد شكلت ما اصطلح عليه بـ"علم التفسير"، فكانت مدار الفهم الأمثل والتفسير الأسلم، ومن ذلك :

١. تفسير نُصُوص الوحي المنزل بالمعهود العربي بنوعيه؛ اللساني-التعبيري، والثقافي-المعرفي المتداول افتراضاً زمن النزول-النبوة.
٢. تفسير نُصُوص الوحي المنزل بمرويات علم أسباب النزول، افتراض كونها رافقت أو ناسبت زمن أو لحظة نزول النصوص.
٣. تفسير نُصُوص الوحي المنزل باجتهادات علم الناسخ والمنسوخ، افتراض كونها راعت محل الخطاب-الإنسان وتقلب أحواله التكليفية.
٤. تفسير نصوص الوحي بعموم النصوص والأخبار الإسرائيلية، افتراض كونها بقيت على أصلها الأول المنزل به.[١]

لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾. [الإسراء. ٣٦]. وقوله سبحانه: (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون). [الأنعام. ١٤٩]. وقوله أيضاً: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾. [البقرة. ١١١].

(١) قد أصل منهج التفسير الموروث جملة ضوابط وقواعد عامة للتفسير، أطلق عليها ما سماه بـ"علم التفسير"، قصد الكشف الموضوعي عن دلالات نصوص الوحي المنزل، وتعطيل التفسير التقويلي المفضي إلى التلاعب بالنص الشرعي دلالة وحكماً. انظر: مقدمة أصول التفسير، ابن تيمية، شرح. ابن العثيمين، عناية وتعليق. محمد المصري، المكتبة الإسلامية، القاهرة. مصر، ط.١، ٢٠٠٦. مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت. لبنان، ط. ٢٠٠٤، ص. ٤١٩ وما يليها. تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، بيروت. لبنان، ط. ٢، ٢٠٠٦. التفسير ورجاله، محمد

قد تم تأصيل ذلك وغيره، منذ البدايات الأولى لتشكل بوادر الفكر الإسلامي، ابتداء من عهد الصحابة والتابعين، خصوصاً في "أزمنة التأسيس المنهجي والمذهبي". ومازالت تلك "التركة" من التأصيلات تتردد وتتكرر إلى اليوم، وكلما تكرر ازداد حجمها عمقاً واتساعاً، مع العلم أن مطلق الإشكالات والمشكلات قد تغيرت، واستجد منها ما لم يكن موجود زمن التأصيلات الأولى، أو لم يكن من الممكن التفكير فيه، أو كان من المستحيل التفكير فيه زمانئذ. إلا أن الفكر الإسلامي المعاصر في أغلبه مازال لاَقماً لها ومقتفياً أثرها ومسلكها كما هي شكلاً ومضموناً، منهجياً ومعرفياً، ويعيد تفسير نص الوحي المنزل بناء عليها، دون نظر أو تجديد أو تأصيل أو تأسيس إبداعي واسع وعميق وثقيل، من جنس نص الوحي المنزل[1].

فكان من نتائج ذلك، أن قُدس البشري وضربت حوله "سياجات دغمائية مغلقة"[2]، وأصبح المعنى المتوصل إليه اجتهاداً يتكرر ويعاد باستمرار، منذ التفسيرات

الفاضل بن عاشور، دار السلام، القاهرة. مصر، ط. ١، ٢٠٠٨. ضوابط في فهم النص، عبد الكريم حامدي، كتاب الأمة، ع. ١٠٨. وكذا مختلف مقدمات مصنفات التفسير التأسيسية والاجترارية.

(١)طرق التعامل مع نص الوحي المنزل متعددة؛ فقد يكون التعامل تكراراً، وقد يكون إصلاحياً، وقد يكون تأسيسياً، وداخل كل منهج توجد مراتب عدة تحقيقاً. إلا أن الطاغي على فضاء التفسير منذ أزمنة التأسيس الأولى وإلى اليوم، هو "منهج التكرار" القائم على استحضار التفسيرات التراثية كما هي، دون إعطاء أي اعتبار للأمر الناظم للمجتمع، وهو أن لكل مجتمع إشكالاته ومشكلاته وأحواله وطبيعة عمرانه، وهي التي يتعين أن تكون مصدرة في الاعتبار؛ سواء على مستوى الاستنباط أو التنزيل. أما "منهج التفسير الإصلاحي"، فهو وإن وجد إلا أنه لم تتأسس له بعد أسس عامة توطأ له المسار. وأما "منهج التأسيس" فهو قد بدأ يرى النور مع ما يسمى "بأصحاب القراءات الجديدة للنص الشرعي"، إلا أنه في حاجة إلى تكثير وتوسيع وتقويم ومتابعة؛ نظرا لاعتبارات عدة، خصوصاً ما تعلق منها بما هو منهجي، إذ هو المحور في العملية التفسيرية الإنسانية أصلاً وفصلاً.

(٢) انظر: تحرير الوعي الإسلامي نحو الخروج من السياجات الدغمائية المغلقة، محمد أركون، ترجمة وتقديم. هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت. لبنان، ط.١. ٢٠١١، ص.٢٠٨. يقصد بالمفهوم أعلاه، أن

التأسيسية الأولى. فصدق على "مقلدة المتقدمين المغتربين زماناً"، أن نص الوحي إذا كان قد اكتمل تنجيمه نزولاً، فقد اكتملت، أو قل، استنفذت دلالاته تفسيراً وتأويلاً أيضاً[1]. ومن أهم الإشكالات المنهجية التي واجهت المتقدمين وهم يؤسسون للقول المرضي للتوسل بالمداخل الأربعة السالفة الذكر لتفسير نصوص الوحي المنزل في أزمنة التأسيس الأولى، تجد "إشكال الصحة والوثوق"، خصوصاً إذا علمنا أنها قائمة على "مبدإ النقل"، أو "الأثر"، أو "الرواية"؛ بمعنى هل مرويات معهود اللسان العربي بنوعيه، ومرويات علم أسباب النزول، واجتهادات علم الناسخ والمنسوخ، والأخبار الإسرائيلية وعموم المرويات، هي فعلاً من المنقول على حقيقة نفس الأمر، أم جيء بها من أجل تعزيز فكرة وتقوية مذهب منتخب، خصوصاً إذا علمت أن أزمنة التأسيس الأولى للقول التأويلي، قد كانت ساحة لصراع التأويلات المذهبية بشتى متجلياتها، في علاقتها بالنص الشرعي المقدس والمؤسس معاً؛ نصوص الوحي المنزل، ونصوص السنة الشريفة الثابتة؟.

وعليه؛ إذا كان الأمر كذلك، ويبدو أنه كذلك، فما حدود صلاحية المداخل الأربعة النظرية والعملية لقراءة نصوص الوحي المنزل تحديداً؟. وما أهم الأسس- التصورات العامة التي تأسست عليها؟. وكيف يتعين النظر والتعامل معها، خصوصاً وأن النظام والأرضية المعرفية قد تغيرت عما كانت عليه سابقاً، وأن لا تأصيل إنساني مقدس تأبيداً، مادام أنه تفاعل واجتهاد مرحلي، وأن الوحي المنزل نص مُكتف بذاته أو بنفسه،

تُحكم مناهج التفكير بمحددات اجتهادية إنسانية عامة؛ بحيث يمنع الخروج عن حدودها ومقتضياتها، وإلا عُد الخارج عنها خارجاً عن الدين نفسه، وتُلصق به قولاً وقائلاً شتى التهم الدينية، كالكفر والفسق والبدعة والزندقة والخروج والمارق من الدين ونحو ذلك.

(١) الإنسان والقرآن وجهاً لوجه، احميدة النيفر، مطبعة النجاح، الدار البيضاء. المغرب، ط. ١٩٩٧، ص. ١٠٧-١٠٨. ميز احميدة النيفر بين منهجين لقراءة نصوص الوحي، خصوصاً على مستوى دلالات النصوص، الأول: المدرسة التراثية، التي هي أميل إلى ثبات المعنى؛ بالنظر إلى ثبات المنهج. الثاني: المدرسة التأويلية المعاصرة، التي هي أميل إلى تغير أو تطور المعنى؛ بالنظر إلى أن منهج قراءة النص مفتوح دوماً على ما استجد. نفسه.

غير مُفتقر ولا تابع إلى غيره مما هو خارجي عنه مُحمل، إذ هو الأصل الذي تستضيء من أنواره العقول والقلوب معا؟.

تم الاقتصار على المداخل الأربعة من باب التمثيل الجزئي لا من باب الاستغراق الكلي؛ لبيان سلامة وصلاحية المنهج المتبع في القراءة والتأويل في إنتاجات الفكر الإسلامي الموروث ومقلديه، وليس المبتغى من ذلك الدعوة إلى "القطيعة المطلقة"، بل ضرورة الرجوع والمراجعة؛ لتحديد ما هو مفيد "حي" لتطويره والبناء عليه، وما هو معيق "ميت" لتجاوز وعدم تكرار أعطابه. والمنحي النقدي الذي تيسر على هديه المساهمة، عبارة عن "تسهيم" عام ينصب على الكشف عن مدى مواءمة وملائمة المداخل الأربعة لقراءة نصوص الوحي المنزل، بعيداً عن أي حكم مُسبق، أو تَحيز قبلي، أو تَنقيص مُزدر.

تقوم إنية المساهمة على أربعة محاور عامة موجزة كمرحلة أولى، وهي:

أولاً: مدخل المعهود العربي بنوعيه، بين: آفاق أنساق تصورات الإنسان المتحيزة تجسيداً، وتعالي دلالات نصُوص الرحمان المطلقة تجريداً.

ثانياً: مدخل علم أسباب النزول بين: تَحَايُث أسباب-مناسبات الإنسان الظرفية، وتعالي أحكام آيات الرحمان المطلقة.

ثالثاً: مدخل الناسخ والمنسوخ بين: تفعيل عالمية آيات القرآن، وتاريخية تعطيلها حكماً ودلالةً.

رابعاً: مدخل المَرويات القَصَصية الإسرائيلية وعُموم النصوص الخَبرية، بين: وثوق النص المقروء وتعاليه، وظنية وسيلة القراءة وتاريخيتها.

تجنح المساهمة-التسهيم نحو اعتماد منهج ذا شعب ثلاثة، شعبة العزو والتوثيق لجمل ما يرد في طياتها من نصوص واجتهادات، من باب تحميل القائل. شعبة الدراسة الموضوعية التي تتوسل بالنظر الكلي الشمولي، بعيداً عن مطلق القبليات الذاتية المتحيزة، التي تُبخس أو تنزه، أو النظر التجزيئى الذري. شعبة النقد المنصف الذي يقتفي تقدير

وتحقيق الحق والحقيقة في صبغتهما المجردة قدر الإمكان، من بـاب الإنصـاف، بعيـداً عـن التنقيص من اجتهادات المخالف جحوداً وإعداماً.

والله المُوفق نحو صَواب القَول وسداد الرّأي.

محمد كنفودي. وجدة-المغرب.
البريد الإكتروني للتواصل:
guenfoudi.med@gmail.com